حسناء الشريف

كوما

لقد نجوت من الفوضويّة والعبث.. فحتّام تسعى؟ وحتّام تبحث؟ وإلى أين؟

إنّ مطلوبك معك.. وأنت واقف عليه.

وفى وسط هذا الضجيج الهائل من الإعلانات والكاميرات والحفاوة البالغة في مدينتنا استقبالًا للشيخ الأعظم والإمام الأكبر مولانا عبد الظاهر المريوطيّ كان الضباب يخيّم على المكان،

كنت أحاول التركيز عليه هو فقط محدّقا بعيني يمينًا ويسارًا كي أراه وأستمع لكلماته وسط الضجيج، أريدُ أن أراه، أهل المدينة يتحدّثون عنه منذ شهر تقريبًا استعدادًا لقدومه، ها قد رأيته أخيرًا، ها هوا ذا، إنّه قصير القامة، شديد البدانة وضخم الجثّة، كرشُه بارز بشدّة،

عمامته تكادُ تغطّي وجهه الصغير،

وإذا برجل يهرول ويلهث من بعيد، مولانا، مولانا،

لقد جئتُك من مكانٍ بعيد، جئتُك بحبٍ ويقين، إنّى أحبّك مولانا ولا أحبّ سواك، فأنت المفضّل عندي وكفى، وأمسك بيده يقبّلها، وإذا بالشيخ يسحبُ يده: أستغفر الله العظيم، لا تفضّلوني على أحد، فكلّنا سواء، كلّنا عباد الله، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا، وكما قال النبيّ صلى الله عليه وسلّم: "لا تفضّلونى على يونُس بن متّى..." صدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وظلّ الجميع يردد وراءه في حفاوة، الله أكبر، الله أكبر، لا فُضّ فوك يا مولانا،

وهو يمشي في خيلاء، ولكنّي أشتمّ رائحة الضباب وهي تخرج من ثنايا خطواته،

تلك المرأة التي ترمقه من بعيد، وإذا بها تقترب منه بخطواتٍ ثابتة، فقال الشيخ الأعظم مشيرًا إليها في استنكارٍ وتعجّب: أليست هذه هى المرأة، فتاة الليل الزانية التي تعمل في البار وقد حكمتُ عليها بحدّ الرجم؟

ابتسمت في ثباتٍ قائلة: وليس إلا وجه الله مرآة للروح، والخلق تائهون في ظلمات الوهم والظنون،

على أيّ بناءٍ قد حكمت عليها بالزنا شيخنا حتّى ولو كانت تعمل في بار؟!

هكذا قالها إمام المسجد،

تلعثم الشيخ عبد الظاهر بعض الشيء وهو يبرطم بكلماتٍ غير مفهومة، وكأنّ فحوى عينيه تعجّب واستنكار من وجهة نظره، كيف لفتاة ليل أن تتحدّث عن روح الله؟

فقال إمام المسجد: لقد حكمنا عليها زورًا شيخنا الأعظم، فمنذ أن تتبّعناها وجدناها تدخل من فتحة الممرّ الضيّق جوار البار ثمّ تكمل طريقها في عفّة الحصول على الرزق، وأوقفت أنا الحكم شاهدًا عليها بالعفّة والطهارة أمام الجميع.

تركه الشيخ عبد الظاهر وتقدّم تجاه الكرسيّ الموجود وسط المسجد، وجميعنا ننظرُ إليه وهو يستعدّ للجلوس، ولكننا تعجّبنا أنّه لا يستطع الجلوس، الكرسيّ ضيّق ولا يسع بدانة الشيخ،

وأحسّ بالحرج الشديد، والهيلمان حوله في حيرة ولا يعلم ماذا يفعل، وحاول الشيخ بكلّ قوّة أن يتدارك الموقف وبدأ يضغط بجسده لأسفل ويضغط حتى جلس، الحمد لله جلس الشيخ، وتنفّس الجميع الصعداء، ماعدا الشيخ عبد الظاهر، فكلّما فتح فمه ليتكلّم ضاقت أنفاسه، الجميع يحدّق في وجهه ليستمع إلى خطبته، وإذا به يتكلّم قليلًا ثم يتوقّف برهة وكأنّه يلتقط أنفاسه، ويصيح الجميع بالتهليل والتكبير، الله أكبر مولانا، الله أكبر عليك، واستمرّ على هذا المنوال حوالي نصف ساعة، وإذا بنا فجأة نسمع صياح الشيخ يملأ أركان المسجد:

هذا لا يليق أبدًا بمقامي، أتسخرون منّي بوضع هذا الكرسيّ الضيّق؟

أعلم جيّدًا أنّه مخططّ منكم للاستهزاء بي، أهكذا تُعاملون أولياء الله الصالحين في مدينتكم؟

أتفعلون معي هكذا وأنا من أشرف وأطهر عباد الله؟

ثمّ تمتم بأصوات وهو يجاهدُ في تحريك جسده يمينًا ويسارًا كي يستطيع التحرّر من الكرسيّ الضيّق، وكلّما حاول، يعود جسده للغوص داخل الكرسيّ مرّة ثانية، والهيلمان حوله، وكلّما اقترب أحدهم بمدّ يده لمساعدته في القيام، هاج وصاح الشيخ في وجهه، وأصبح الذهول يعمّ المكان، والضباب يلتفّ حول الشيخ أكثر وأكثر.

الجميع يعلمُ أنّ هذا الكرسيّ ثابت مكانه منذ بناء المسجد ولم

يتغيّر،

الحمد لله، أخيرًا قام الشيخ وتحررّ بجسده من الكرسيّ، ولكنّه لم يقف دقيقة واحدة فخرج على الفور بخطوات (مبعجرة) ناقمًا غاضبًا، والجميع ينظُر إليه وهو يرحل، ولم يتفوّه أحد.

وفى هذه اللحظة تعالت قهقهة دكتور مادّة "علم الحديث" في المحاضرة فور أن انتهى من سرد قصّته، وابتسمنا ونحن نستمع إلى كلامه:

فى كلّ عامٍ أشرح فيه هذا الحديث أتذكّرُ هذه الـ "كومّا"، وعندنا في لهجتنا النوبيّة، كومّا: بمعنى حدّوتة، أووووه، واااااو،

كومّا،

هكذا ردّد بعضهم في حالة انبهار من تعلّم كلماتٍ من لهجة جديدة، وقال الدكتور مبتسمًا: نعم، وهذه حدّوتة من واقع الحياة، وأكمل وهو ينظر لنا في قوّة:

إذا كان مراد الإنسان مرتبطًا بروح الله وخاضع لمراد الله لاتّصل بالبقاء، فمراد الإنسان فانٍ، ومراد الله باقٍ، فالحديد يكتسب خاصيّة النّار دون أن يفقد تمامًا خاصيّة كونه حديدًا، ولكنّ الحديد بعد مروره على النّار يتباهى بحمرته مثل ذهب المنجم، ويتشكّل بأغلى الأثمان، وهكذا الإنسان، فحينما تطهر روحه من الشكّ ثمّ يقتبس النّور من الله، يتمتّع بمنزلة "المُصطفين الأخيار" عند الله، وتُرفرفُ روحه بنعومة وانسيابيّة في عشق الله.

فالحديث الذي معنا اليوم، قوله صلّى الله عليه وسلّم:

"لا تفضّلوني على يونُس بن متّى، إنّه ليس لمعراجي فضلُ على معراج يونُس بن متّى" صدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.
اعتبر الرسولُ صلّى الله عليه وسلّم غياب يونُس عليه السلام في بطن الحوتِ معراجًا، وإن كان معراج النبي محمّد عليه السلام في الفلك بين السماواتِ، معراجًا، فإنّ معراج النبيّ يونُس عليه السلام في بطن الحوت تحت الأرضِ إلى أن وصل الحوت لآخر قاع البحر، اعتبره معراجا، فالمعراجُ ليس دائمًا إلى أعلى، فربّما يكون المعراج للأسفل إذا كان القرار به عجلة وسرعة، والحقّ ليس به عجلة ولا سرعة قرار، لأنّ الأمر كلّه هنا ليس معنويًا، إنّه معنى روحيّ فيما وراء العالم المحسوس، فى كلا المعراجين كان الأمر غيبيًّا،
وإلى الآن، كلا المعراجين من الغيبيّات، لأنّ الهدف من المعراجين هو قرب الحقّ، ومعرفة الحقّ بدلائل من قوّة الإله الحقّ،
الله الذي خلق السماوات والأرض والبحار وكلّ الكائناتِ بالحقّ،
وخرجتُ من محاضرتي هذه وسؤاله يدور في ذهني؟
أيّ المعراجين سنختاره في طريق نجاحاتنا في الحياة؟
المعراج لأعلى؟
أم المعراج لأسفل؟
وحتى ولو كان المعراج لأسفل، هل سنتعامل معه بيقين مثل يقين النبيّ يونُس بن متّى عليه السلام؟
فخيّم علىّ الصمت، وبدأتُ النجاة من الفوضويّة والعبث.